





نظرة
على فن الكتابة عند العرب
فى القرن الثالث الهجرى

تأليف: زكى مبارك

ترجمة: إبراهيم عوض

1019



يدور الكلام فى البحث الذى بين يدى القارئ حول رسالة ابن المدبر الكاتب العباسى المعروف و موضوعاتها وأهميتها التاريخية و الفنية، وهى الرسالة التى خصصها مؤلفها لما يجب على كُتَّاب الدواوين مراعاته فى تحبيرهم لرسائلهم الرسمية من تقاليد شكلية و مضمونية، ثم يتشعب القول هنا وههنا فى المقارنة بين ما ورد فى تلك الرسالة وما ورد فى المؤلفات المشابهة لها مثل " كتاب الكُتَّاب " لابن درستويه و" أدب الكُتَّاب " للصولى و "الصناعتين "لأبى هلال العسكرى، كل ذلك فى تحليل دقيق و عبارة فرنسية تجمع بين السلاسة و الرشاقة و الوضوح مما يدل على تمكن المؤلف من موضوعه فكرة وأسلوبًا رغم أن اللغة التى أفرغ فيها ليست لغته الأم .

نظرة على فن الكتابة عند العرب
فى القرن الثالث الهجرى

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠١٩
- نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى
- زكى مبارك
- إبراهيم عوض
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦م

هذه ترجمة كتاب :

Considération Sur l'Art d'écrire chez les Arabes
au III^e siècle de l'Hégire
de Zaki Mubarak

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El., Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

المشروع القومى للترجمة

نظرة على فن الكتابة عند العرب

فى القرن الثالث الهجرى

تأليف : زكى مبارك

ترجمة : إبراهيم عوض



٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

مبارك ، زكى

نظرة على فن الكتابة عند العرب فى القرن الثالث الهجرى /

تأليف زكى مبارك ؛ ترجمة إبراهيم عوض . - ط ١ . -

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٦

ص ، ٢٠ سم .

(١) الكتابة - (أ) العنوان .

رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٦٠٤٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 305 - 991 - X

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم

بين يدى الترجمة

فى الصفحات التالية ترجمة للبحث التمهيدى الذى قدمه الدكتور زكى مبارك لجامعة باريس بين يَدَىْ رسالته : " La Prose Arabe du IVᵉ Siècle de L' Hégire" المعروفة فى طبعتها العربية بكتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع" ، وهى الرسالة التى أحرز بها درجة الدكتوراه من تلك الجامعة سنة ١٩٣١م ، وهذه أول مرة يظهر فيها ذلك البحث فى ثوب عربى .

وكنت قد حصلت على النص الفرنسى من السيدة كريمة مبارك (كريمة المرحوم زكى مبارك) منذ ثلاث سنوات ، فبدأتُ فى الحال ترجمته دون أن يكون هناك تخطيط مسبق ، بل جاء الأمر عفو الخاطر حبًا فى الدكتور زكى ورغبة فى أن يكون هذا البحث النفيس بين يدى الباحثين العرب ، الذين كانوا يعرفون أن له رسالة صغيرة فى فن الكتابة النثرية العربية فى القرن الثالث الهجرى ، لكن دون أن تكون لديهم فكرة عما أودعه هذه الرسالة .

وقد ظهر هذا البحث فى مقدمة تحقيق زكى مبارك لرسالة إبراهيم ابن المدبّر الكاتب العباسى المعروفة بـ "الرسالة العذراء" ، وهى الرسالة التى حققها د. زكى مبارك خلال دراسته فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس ونشرتها له دار الكتب عام ١٩٣١م بعد عودته من العاصمة الفرنسية. ويخبرنا ، رحمه الله ، فى الكلمة الوجيزة التى قدم بها تلك الرسالة أنه قد أجرى على البحث المذكور بعض التعديلات فى ضوء الملاحظات التى أبداها مناقشوه أثناء امتحانه فى جامعة باريس .

ويدور الكلام فى البحث الذى بين أيدينا حول رسالة ابن المدبّر وموضوعاتها وأهميتها التاريخية والفنية ، وهى الرسالة التى خصصها مؤلفها لما يجب على كتاب الدواوين مراعاته فى تحبيرهم لرسائلهم الرسمية من تقاليد شكلية ومضمونية ، ثم يتشعب القول هنا وههنا فى المقارنة بين ما ورد فى تلك الرسالة وما ورد فى المؤلفات المشابهة لها مثل "كِتاب الكتّاب" لابن درستويه و "أدب الكتّاب" للصُولى و"الصناعتين" لأبى هلال العسكرى ، كل ذلك فى تحليل دقيق وعبارة فرنسية تجمع بين السلاسة والرشاقة والوضوح مما يدل على تمكن المؤلف من موضوعه فكرة وأسلوباً رغم أن اللغة التى أفرغ فيها فكرته ليست لغته الأم . لكن ليس فى هذا أدنى غرابة ، فنحن هنا مع الدكتور مبارك ، وحين يكون القارئ مع زكى مبارك فهو دائمًا فى أيدٍ أمينة .

إبراهيم عوض

(١)

الرسالة التى أقدمها اليوم إلى مدرسة اللغات الشرقية بباريس سبق أن نُشِرَتْ فى عام ١٩١٢م للمرة الأولى فى القاهرة ضمن مجموعة من الرسائل المهمة تحت إشراف الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف العمومية فى سوريا ، الذى ذكر لنا أنه وقع على مخطوطة قديمة لها فى مكتبة الشيخ طاهر الجزائرى ، وكان مُعْتَمَدُه فى طبعها على تلك المخطوطة وحدها لعدم عثوره على أية نسخة من مخطوطة أخرى . ولهذه الرسالة أهمية بالغة ، ومع ذلك فلا أحد ، فى حدود علمى ، قد اهتم بها بعد طبعها ولا حتى العالم الذى نشرها ، إذ لم يحدث أن علق عليها بشىء . كذلك فإن مؤرخى الأدب العربى فى مصر قد تركوا هذا الأمر يمرّ دون أن يشيروا إليه ، بل لم يفكر أى منهم فى الإفادة من تلك الوثيقة لوضع دراسة عن فن الكتابة .

وردًا على خطاب بعثْتُ به إلى الأستاذ كرد على أسأله عما إذا كان قد عثر بعد طبع الرسالة على مخطوطة أخرى ، أو وَضَع يده على أية معلومات تتعلق بها أو صحح بعض ما فيها من أخطاء النسخ وتحريفاته ، كان جواب الأستاذ الفاضل أنه لم يكتشف حتى الآن أية مخطوطة

أخـرى للرسـالة ، وذلك راجـع ، دون ريب ، إلى أن أهـل البلد "أَبْيَعُ من إخوة يوسف " ، وأن هناك بالتأكيد أخطاء وتحـريفات في النص الذي طبعه كما هو الشأن دائمًا مع المخطوطات القديمة إذا لم يسعدها الحظ بأن ينسخها أحد العلماء أو يقوم بتصحيحها أديب يضَارع في العلم مؤلفها نفسه .

وعلى هذا فـقـد قـمتُ بنفـسي بدراسـة الرسـالة بغـاية الانتـبـاه واستطعتُ اكتشاف عدد من الأخطاء فيها ، ثم تابعتُ قراءتها كلمة كلمة مع الأستـاذ مَرْسيـه ، الذي سـاعدني عليَّ توضيح بعض غوامضـهـا . ولست أظن أنني أعطي لنفسي أكثر من حقـهـا إذا مـا اعـتقـدتُ أن هذه الجـهود قد مكنتني من تقديم نصٍ أفضل إلى مدرسة اللغات الشـرقية بباريس . ولقد كان من الأفضل لي أن أكتب هذه الدراسة بلغتي الأم ، بَيْدَ أن المسـيو مَرْسيه أقنعني بالعدول عن ذلك ، إذ كان رأيه ، ومعه الحق دونما شك ، أنه لا بد من التـفكير في أولئك القـراء الذين ليس من اليسـيـر عليهم قراءة نص عربي في لغته الأصلية ، ومن ثم فلا بد من كتابته بالفرنسية .

ولسـوف أعرض هنا الأفكار الأسـاسـيـة في الرسـالة وأقارن بينـها وبين الأفكار التي كتبها في الفترة ذاتها كل من الجاحظ والصُولي وابن درستويه(*) وابن عبد ربه في الموضـوع نفسـه (١) . وتكمن أهـمـية هذا

(*) يكتب زكي مبارك هذا الاسم بالحروف اللاتينية دائمًا هكذا : "Ibn-Durustuyah" المترجم .

(١) قد يبدو أنه كان ينبغي ذكر ابن قتيبة هنا أولاً ، إذ يدور كتابه المسمَّى "أدب الكاتب" حول فن الكتابة ، إلا أنه في واقع الأمر يختص بعلم اللغة لا بالبلاغة. ومع ذلك فقد تناولنا هذا الكتاب بملاحظاتنا ضمن تحقيق "الرسالة العذراء" كلما وجدنا ذلك نافعًا لعملنا .

البحث فى تصويره لطبيعة الحركة الأدبية والنظريات التى كانت توجّه فن الكتابة فى القرن الثالث الهجرى ، وهو ما يجعل منه على نحوٍ ما مقدمة لرسالتى عن "النثر الفنى فى القرن الرابع" .

(٢)

وكان إبراهيم بن المدبر صاحبُ "الرسالة العذراء" كاتبًا وشاعرًا معًا ، وكانت وفاته فى بغداد عام ٢٧٩ هـ ، فهو إذن من أبناء القرن الثالث الهجرى . وبعد تقلبه فى عدة مناصب رفيعة وَزَرَ للمعتمد ، حيث كان يحيط به أمثاله من الشعراء والأدباء ممن يقصدونه فى حاجاتهم . ويجد القارئ فى كتب الأدب نوادر لطيفة تدور حول هذا الموضوع ، ومن ذلك أن الشاعر العطوى أتاه ذات يوم فى أمرٍ ما ، إلا أن الحاجب لم يأذن له بالدخول ، فما كان منه إلا أن عاد أدراجه ونظم من فوره البيتين التاليين :

أتيتُك مشتاقًا فلم أر جالسًا ... ولا ناظرًا إلا بوجه قطُوب

كأنى غريمٌ مقتضٍ أو كأننى ... نهوض حبيب أو حضور رقيب

وبعث بهما إلى ابن المدبر(١) . كما دخل أبو العيناء إلى عبيد الله ابن سليمان فشكا إليه حاله ، فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن

---

(١) ياقوت / ١ / ٢٩٢

المدبر ؟ فقال : كتبتَ إلى رجل قد قَصرَّ من همته طول الفقر وذل الأسر ومعاناة محن الدهر فأخفقته فى طِلْبتى ، فقال : أنت اخترته . قال : وما علىَّ ، أعزّ الله الأمير ، فى ذلك ؟ قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً فما كان منهم رشيد[1] ، واختار النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى سرح كاتبًا فرجع إلى المشركين مرتدًا ، واختار على بن أبى طالب أبا موسى الأشعرى حاكمًا له فحكم عليه [2] . والواقع أن الأسر الذى أشار إليه أبو العيناء بخصوص ابن المدبر هو أسرٌ حقيقى ، فقد حبسه الزنج فى البصرة ، فاحتال حتى نقب السجن وهرب ، ونظم البحترى فى ذلك قصيدة جميلة [3] .

ويجد الباحث المعلومات التى تتعلق بابن المدبر مبعثرة هنا وهنا فى المظان المختلفة [4] ، ويعود جزء من شهرته إلى حبه لعَريب المغنية الجميلة ، كما كان صديقًا حميمًا للجاحظ ، وكم من ليلة حلوة سهراها

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى الآية ١٥٤ من سورة "الأعراف" : "واختار موسى قومه سبعين رجلاً" ، فكانوا كلهم حمقى .

(٢) زهر الآداب / ١ / ٢٥٦ . وقد كان ابن أبى سرح أوّلاً كاتبًا للنبى عليه السلام ، إلا أنه ارتد ورجع مشركًا .

(٣) المرجع السابق / ١ / ٢٥٧

(٤) توجد ترجمته فى المجلد التاسع عشر من «الأغانى» ، وانظر كذلك ١٨/١٨٨ ، ٢٤ ، ٥٩ ، و ٢٠/٣٥ ، ٣٦ ، و ٦/١٧٥ ، و ١٥/٩٠ ، ٩٢ ، و ١٣/١١/ ، ٣٠ ، و ٩/٢٦ ، ٢٩ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ويمكن الرجوع أيضًا إلى ياقوت ٢/١٥٥ ، ٤٠٩ ، و ٦/٩١ ، ٦٥ ، و ٢/٩٣ ، ٩٤ ، وإلى «مسالك الأبصار» ١/٣٢٠ ، و «نشوار المحاضر» ١/١٣١ ، وأخيراً «زهر الآداب» ١/١١٣ ، ١٤٠ .

معًا . وأحسب أن هذا الود العظيم بينهما هو أحد الأسباب التى حفزت ابن المدبر على وضع رسالته عن فن الكتابة ، ذلك أنى لم أقرأ فى أى مرجع أنه كان مهتمّا ، بوجه خاص ، بهذا اللون من الدراسة . ورغم هذا فقد قرأت عند الصولى عبارة تبدو وكأنها تشير إلى أن ابن المدبر كان يتمتع بالمقدرة على نقد الكلام ، وهذه العبارة تكاد تتطابق مع عبارة فى «الرسالة العذراء» تتعلق بقولهم : «جُعِلْتُ فداك» ، وهو وحده كافٍ فى تأكيد نسبة الرسالة لابن المدبر [١] .

والبلاغة فى هذه الرسالة غير البلاغة التى نحا الناس إليها من بعد ، فالأسلوب أكثر صراحة وأقصد إلى الغاية منه عند الجاحظ ذاته ، كما أن النفس أكثر حرارة ، والكلام فيها موجه إلى كتّاب الدواوين كاتمى أسرار الملوك والخلفاء ، وبعض الفقرات فى الواقع أصيلة تامة الأصالة وتُبْرِز ما للكتابة النثرية من قيمة وأهمية ، وكذلك ما يتمتع به الكاتب من تأثير ونفوذ بفضل ما حباه الله من موهبة .

والرسالة فى مجموعها عمل ممتاز ، وقد نعتها صاحبها بـ «العذراء» لاعتقاده أن أحدًا لم يسبقه إلى معالجة المسائل التى تشتمل عليها ، وإن كان الجاحظ ، فى الحقيقة ، قد تناول بعضًا من تلك المسائل . بيد أن لهذا العنوان ، بوجه عام ، ما يبرره ، فهى فعلاً «رسالة عذراء» .

(١) أدب الكتاب /١٥٤ .

(٣)

ويعلِّق ابن المدبر أهمية كبرى على «الشكل» ، ومن رأيه أن الألفاظ ينبغى أن يتم انتقاؤها طبقًا لحال المخاطب وذوقه ومستواه الثقافى ، وهو ما يعتمد بدوره على الرسوم المتَّبَعة فى الأوساط الاجتماعية المختلفة . وفى رأيه أيضًا أنه لا بد من تجنب العبارات التى لها مع ذلك معانٍ دقيقة محدَّدة إذا لم تكن هى العبارات التى تجرى بها العادة فى أوساط المخاطبين . وفيما عدا هذا ينبغى أن يتم اختيار الألفاظ جميعها بناءً على وضوح معناها وجزالتها . كذلك فإن لموضعها من الجملة أهمية كبيرة . ومن ثم لا ينبغى أن تكون قلقة فى مكانها ، فإن الألفاظ كالتطريز الذى يراد به تزيين الثوب ، إذ لا بد أن تنسجم كل تفصيلة فيه مع أخواتها ، وكما ذكر فقد شبهت الحكماء المعانى بالغوانى ، والألفاظ بالمعارض التى تكسوهن .

ومن ناحية أخرى فإن الكاتب لا يجد صعوبة فى العثور على اللفظ الذى يريد ، إنما المشكلة فى النظم والتأليف . وما عليك إلا أن تضع اللآلئ بين يدى الجوهرى ، ولسوف تجد أن الصعوبة هى تأليفها فى عقد منظوم . وعلى سبيل المثال فالياقوت فى ذاته حسن ، لكنه فى جِيد الحسناء أحسن . وبالمثل إذا أراد الكاتب أن ينتج شيئًا جميلاً فعليه أولاً أن يجد موضوعًا جميلاً . كذلك لا بد له أن يكون دقيقًا وحكيمًا ، فإن الدقة روح الآداب ، والكاتب الذى يأخذ الأمور بخفة لن يحصل على أية ثمرة ، ثم إن الحكمة تتطلب نفوسًا دقيقة منصفة .

(٤)

وعلى الكاتب أن يختلف إلى العلماء ورجال الأدب ، وأن يهتم بتصفح رسائل المتقدمين والمتأخرين والنفوذ إلى لبِّها ، وأن يحفظ من الأشعار والأخبار والسِّير ما يَعْذُب به لسانه ويطول به قلمه . وبالمثل عليه أن يدرس خُطَب العرب ومحاوراتهم ، وأن يتعلم المنطق وأدب الفُرْس وأمثالهم، وأن يعرف أيضًا آدابهم في السلوك ومكايدهم في الحرب ، فضلاً عن النحو والصرف واللغة والعروض .

ومن ناحية المظهر يُسْتَحْسَن أن يكون طويل القامة ، متناسق الأجزاء ، رقيق حواشي اللسان ، مليح الزى ، بهىّ الملبس ، وأن يكون كذلك خفيف الروح ، صحيح القريحة ، محنكًا بالتجربة .

ومن صفات الكاتب الموفق أن يكون على معرفة تامة بجميع الطبقات ، فإن لكل طبقة رسومًا ومذاهب تجب مراعاتها عند كتابة الرسائل . وليس أشد إساءة من أن يخلط الكاتب بين الخلفاء ووزرائهم أو يخاطب كتّابهم بالأسلوب ذاته الذى يخاطب به قوّادهم مثلاً .

وقد استغنى ابن المدبر عن ذكر التجار والسُّوقة والعوام فى رسالته بين طبقات المخاطبين لانشغالهم بمهنهم عن ذلك ، وأما بالنسبة للطبقات الأخرى فإن لكل مكتوب إليه قدرًا ووزنًا ينبغى على الكاتب مراعاته حتى لا يرتكب خطأً فاحشًا ، فقد عابوا الأحوص لأنه خاطب الملوك بمثل قوله :

وأراك تفعل ما تقول ، وبعضهم   مَذِق الحديث يقول ما لا يَفْعَلُ

رغم أنه معنى صحيح فى المدح بوجه عام ، إذ لا يليق أن يمدح الملك بأنه يَصْدُق الحديث وينجز الوعد . صحيح أن صدق الحديث وإنجاز الوعد هو من نزاهة الخلق دون أدنى ريب ، لكنه واجب على كل إنسان ، والملوك لا يُمْدَحون بالفروض الواجبة بل بالنوافل التى لا يقوم بها سواهم . ترى أيصح مثلاً أن يقال فى بعض الملوك إنه لا يزنى بحليلة جاره أو إنه لا يخون السر الذى استُودِعه ؟ إن هذه فى الواقع صفات تستحق الثناء ، إلا أنها فى حق الملوك تبعث على السخرية . لأنها من الواجبات التى ينبغى أن يفعلها كل إنسان ولو كان من أقل الطبقات شأنًا .

(٥)

وينصح ابن المدبر من يرغب فى اتخاذ الكتابة مهنة أن يتأكد أولاً من مواتاة طبعه لذلك ، فلكى يكون الإنسان كاتبًا ناجحًا لا بد له من استعدادات معينة بل لا بد له من ميل طبيعى . ومن الخَطَل إكراه الطبيعة إذا لم تكن مواتية ، إذ لا بد أن يجرى الكاتب من البلاغة على عِرْق ، أما من كان مرجعه إلى اغتصاب كلام المتقدمين ومعانيهم فليس من صناعة الكتابة فى عير ولا نفير .

ومَنْ يُمْنَ بحب الكتابة فليتشكك رغم ذلك فى نفسه ، لأن فى كل إنسان ميلاً عامًا إلى العُجْب بذاته ، وعليه أن يتشدد فى تفحص كلامه ، فإن فى البشر ضعفًا وغرورًا ، وكل صاحب كتابة فإنه ينظر إلى تأليفه

بعين الوالد الحنون إلى ولده ، والعاشق إلى عشيقه . فإذا كتب رسالة فليعرضها على البلغاء دون أن ينسبها إلى أحد كى يَرَوْا رأيهم فيها وينقدوها ، فإذا وجدت إصغاء عندهم وقبولاً فليستمر فى طريقه .

وإذا أراد أن تجود كتابته فأحرى به أن يرتصد أوقات فراغ قلبه وساعة نشاطه لأن النفس لا تسمح بأجود مكنونها إلا مع الرغبة المفرطة فى الشىء أو الغضب المستولى عليها . وليس للكاتب الحق فى أن يجرى فى رسائله على الحرية التى يجرى عليها القرآن ، إذ القرآن إنما يخاطب عربًا أصلاء يفهمون عنه بسهولةٍ كلّ ما يرمى إليه ، ومن ثم فإنه قد يحذف كلمات أو جملاً بتمامها ، أما الكاتب الذى يخاطب غالبًا قومًا دخلاء على اللغة فعليه أن يتجنب ، ما وسِعه ، اللفظ المشترك والمعنى الملتبس .

(٦)

ويعلق ابن المدبر أهمية كبيرة على المواصفات المادية للقلم ذاته ، ويقدم لنا بشأنه معلومات لا تكاد تهمنا الآن ، حيث يشترى الناس أداة الكتابة جاهزة تمامًا ، ومع ذلك فإنى أشكر ذلك الرجل وكل من تناول مثله هذه المسألة ، من كل قلبى ، على هذه التفاصيل لما فيها من الدلالة النفسية الخفية . ذلك أن القلم إذا كان طيّعًا منسابًا فإنه يحفز العقل على نحو مدهش ، ونحن اليوم إنما نؤثر قلمًا على آخر لأن الكتابة به أيسر وأبهج . ولقد عيب على أمير الشعراء تغنيه فى شعره بمحاسن

ريشة صادق وتحويله شعره إلى إعلان تجارى(*) ، مع أنه من البساطة بمكان أن يكون فى يد الكاتب الجيد قلم جيد .

كذلك اهتم ابن المدبر بنوع الورق ، إذ لا بد أن يكون من الصنف الممتاز ، أما بالنسبة لأطوال الورقة فقد كان لكل طبقة تقاليدها فى هذا الصدد، ولا بد أن تكون الرسالة الديوانية ذات أبعاد محددة تحديداً كما فى الشعائر الدينية إن صح التعبير . ونحن نعرف جيداً أن هذه التقاليد ما زالت مستمرة حتى اليوم . وأخيراً نراه ينصح بتتريب حبر الرسالة من أجل تجفيفها قبل طيّها وألا يسهو الكاتب عن تأريخها أيضاً .

ويوصى ابن المدبر بالصلاة على النبى ، وهى سنّة جميلة ، والمعروف أن بنى أمية هم أول من طرح ذلك من رسائلهم ، ثم جرت عادة الكتاب عليه . كما يوصى بأن يكون صدر الرسالة دليلاً واضحًا على المراد منها ، وما يختم به فصولها من ألفاظ إيماءً إلى ما يراد تقريره فى نهايتها .

وهو يورد بعض المعلومات الطريفة لمن يريد أن يفضّ خاتم الكتاب من غير أن يُتْلفه ، حتى إذا اطلّع على ما فيه أعاد ختمه كرة

(*) لعل الإشارة هنا إلى الأستاذ العقاد ، الذى ساط أمير الشعراء بسياط تهكمه فى كتاب «الديوان فى الأدب والنقد» على اتخاذ شعره إعلانًا تجاريًا يتغنى بمحاسن ريشة صادق ، مقارنًا إياه فى هذا السبيل برديارد كبلنج ، الذى رفع دعوى قضائية ضد إحدى الشركات لاستعمالها بعض شعره على سبيل الإعلان عن منتجاتها – المترجم .

أخرى دون أن يشتبه أحد فى فضه (*) . وهذا يعرِّفنا إلى أى مدى كانت المراسلات الديوانية مهمة منذ ذلك الحين ، وهو ما أعتقد أن القلم السرى لا يزال يقوم به فى أيامنا هذه ، ولكن بأية إجراءات ؟ إن من غير المجدى الإجابة على هذا السؤال ، ولكن فلنطمئن تماماً أن الدبلوماسيين ورجال الحرب يعرفون كيف يؤدون عملهم . ويؤكد مؤلفنا أن مهنة الكتابة مهنة عظيمة ، فكم رفع القلم من إنسان صغير الخطر لئيم الجنس حتى شافه به عنان السماء مجداً .

(٧)

وهكذا قمنا بجولة سريعة بين فقرات "الرسالة العذراء"، لكن من الأهمية بمكان أن نرجع إلى الأصل ونقرأه قراءة متمعنة إذا أردنا أن نقدر قيمة هذه التحفة الأدبية التى قدّمتُ نصَّها محققاً مصحّحاً مع التعليق عليه فى الهامش . والآن سوف أقف عند نقاط التماسّ التى اكتشفتها بين الأفكار الموجودة فى "الرسالة العذرء" ومثيلاتها عند المؤلفين الآخرين الذين تناولوا الموضوع نفسه .

(*) نص ما جاء فى «الرسالة العذراء» فى هذا الموضوع هو : « وأما قراءة الكتب المختومة والتلطف لفض خواتيمها فمما لا نذكره خوفاً من سفيه» (ص٢٨) ، وهذا كل ما هنالك - المترجم .

فبالنسبة لـ "الصلاة على النبى" نجد الصولى يتحدث عنها هو أيضًا ، ولكن بينما لا يقول ابن المدبر أكثر من أنها كانت سنّة يجرى عليها الكُتّاب إلى أن ألغاها بنو أمية ، نرى الصولى يشير إلى أن هارون الرشيد قد أعاد العمل بها وأوصى بمراعاتها يبتغى بذلك الأجر من الله[1] . أما "البسملة" فى أول الرسائل فلم يذكر ابن المدبر عنها شيئًا ، على حين يذكر الصولى[2] وابن درستويه[3] معلومات قيمة فى هذا الموضوع . والمعروف أن العرب في القرون الأولى من تاريخ الإسلام كانوا يهتمون أشد الاهتمام بتمجيد اسم الله فى أوائل رسائلهم وخطبهم ومؤلفاتهم . وقد عابوا زياد بن أبيه عندما خطب فى الناس دون أن يذكر اسم الله أو يحمده ، وسمَّوْا خطبته من أجل ذلك : "البتراء" ، بل لقد وضعوا حديثًا يصم كل أمر لم يُبْدَأ باسم الله بأنه أقطع .

وفى أيامنا هذه فإن أول درس يتلقاه الطلاب فى الجامعة الأزهرية يدور عادةً حول هذه المسألة . والملاحظ أن المؤلفين الأزهريين يبدأون كتبهم بالبسملة حتى لو كانت فى الحساب أو فى الجغرافية . وهذا موجّه ، فيما يبدو ، ضد من كان فى قلوبهم زَيْغ ولا يحترمون قديم التقاليد . ومن الواضح أن الأمر لا يعدو أن يكون مسألة شكلية ، وإن

---

(١) أدب الكتّاب / ٤٠ .
(٢) المرجع السابق / ٣١-٣٢ .
(٣) كتاب الكتّاب / ٧٥ .

كانت له مع ذلك قيمة نفسية عميقة . على أنه لا بد من القول إن ذلك التقليد لا يُعْمَل به إلا فى المؤلفات الرضينة ، أما دواوين الشعر فمن غير اللائق إثبات البسملة فيها لأن الشعر ، فى نظر المتدينين المحافظين ، مجرد تسلية لا قيمة لها .

فإذا عُدنا إلى خطبة زياد فإنى أراه مصيبًا غاية الإصابة فى عدم تتويجه إياها بالبسملة لما تنطوى عليه من المودة والرحمة ، على حين أن خطبته كانت حديثًا عنيفًا حمل فيه على أهل البصرة لفسادهم وخروجهم عن النظام العام ، أما البسملة أو الصلاة على النبى فهى إيماءة لطيفة ينبغى استعمالها عند مخاطبة أهل الحلم والرويّة . وعلى أية حال فإن هذه السنّة لا تراعى فى أيامنا هذه إلا فى أوساط المتدينين .

(٨)

كذلك تحدث الصولى طويلاً عن الحبر والدواة[١] والمواصفات الصحيحة للقراطيس[٢] وكيفية بَرْى القلم[٣] . وقد توسع فى ذلك أفضل مما فعل ابن المدبر ، وإن كان مثله فى الرأى بأن الكتابة الجيدة لا بد لها من أدوات كتابية جيدة ، بل لقد عقد فصلاً كبيرًا للرسائل والأشعار

---

(١) أدب الكتّاب / ٩٥-١٠١ .
(٢) المرجع السابق / ١٠٥ .
(٣) السابق / ٦٩-٧٠ .

التى أُلِّفَتْ فى مدح القلم . وكان الكتّاب الكبار قديمًا ينظرون إلى القلم الجيد على أنه أفضل هدية تُهْدَى . وإنى لأحسب أن هذا الكلام يصدق اليوم على أقلام الحبر أيضًا . كذلك كان القدماء يحكمون على الكتّاب بأدواتهم الكتابية ، بل لقد كانوا يرون أن رداءة الخط من زمانة الأديب(١) ، وأن السطر لا بد أن يكون مستقيمًا منتظمًا على نوع واحد من الخط ، أما إذا شاع الاضطراب فيه فإنه يكون بمثابة شعر مختلف الأعاريض، يكون شكله قبيحًا سمجًا (٢) . ومما يؤذى العين أن يقطع الكاتب الكلمة بحرف يفرده على سطرين (٣) .

ويورد ابن درستويه بعض المعلومات عن الرسوم الخاصة بكتابة عناوين الرسائل فى عصره (٤) ، إذ كان ينبغى مثلاً كتابة اسمى الكاتب والمكتوب إليه جميعًا ، وإذا كان المكتوب إليه أجلّ قدرًا من الكاتب قُدِّم اسمه إجلالاً وتعظيمًا . ويذكر الصولى أنهم كانوا أولاً يكتبون البسملة فى عنوان الرسالة ثم تركوا ذلك لاحقًا(٥) ، وأن بعض الناس كانوا يعنونون رسائلهم بالشعر !

ويحذر ابن المدبر من نقط الحروف وشكلها إلا فى المواضع الملتبسة التى يعجز المكتوب إليه عن نطقها الصحيح ، فعندئذ يُستخدم الإملاء

---

(١) السابق / ٥٢ (وزمانة الأديب : مرضه المزمن - المترجم) .
(٢) السابق / ٥٤ .
(٣) السابق / ٥٦
(٤) كِتاب الكتّاب / ٩٧ .
(٥) أدب الكتّاب / ١٤٤

المعتاد ، وهو ما يقول مثله الصولى . بل إنه ليؤكد أن من اللازم اطراح النقط والشكل عند الكتابة إلى أحد العظماء تنزيهًا لعلمه وعلو معرفته عن تقييد الحروف ، بخلاف ما لو كتب العظيم إلى من دونه فإن بمستطاعه عندئذ أن ينقط ويشكل زيادة فى الإيضاح له ونفى الارتياب عنه . وهناك مع ذلك من يؤثرون إثبات النقط والشكل خشية أن يؤدى العكس إلى وقوع القارئ فى الالتباس(١) .

ويقول ابن درستويه إن من شأن أهل النحو والشعر والغريب استبقاء الشكل والنقط دائمًا ، أما كتّاب الدواوين فشأنهم التخفيف وإغفال الشكل والنقط من كل ما وضح ولم يلتبس ، فإذا التبست الكلمة فتقييدها لازم ، وإذا كان الشىء مما تلحن فيه العامة أو تخطئ فتقييده مزية بالكاتب .

ومسألة النقط والشكل من المسائل المهمة فى نظرى . وهى ، كما يعرف الجميع ، أحد الانتقادات التى توجّه إلى الحروف العربية ، إذ من الشائع القول بأن الكلمات التى تُكتَب بهذه الحروف تقبل النطق بعدّة طرائق ، ومن ثم يكون لها عدة معان ، وأن الأتراك قد لجأوا فى كتابتهم إلى الحروف اللاتينية تجنبًا لهذه الصعوبة .

والواقع أنْ ليس لى علم بمدى النجاح الذى أحرزه التُّرْك فى هذا المضمار ، غير أنى أعرف جيداً أن استخدام الحروف اللاتينية فى كتابة

(١) المرجع السابق / ١٤٦ .

لغتنا سوف تكون له عواقب وخيمة ، إذ لدينا صنفان من الحركات : حركات طويلة هى الألف والواو والياء ، وأخرى قصيرة هى الضمة والكسرة والفتحة ، وهى التى تحدّد النبر . وهذه الحركات لا يمكن إدماجها فى الألفباء اللاتينية إلا بأشد أنواع المشقة ، وهو ما يجعل الإملاء والنطق فى غاية التعقيد.

ولكى نتخلص من هذه المتاعب فمن الأفضل شَكْل الكلمات دائمًا ، وليس فى ذلك صعوبة تُذْكر ، ولسوف يصبح الإملاء العربى عند ذاك أسهل من الإملاء اللاتينى وأوفى بالحاجة العملية . ومن المؤسف أن أجدادنا لم يلتزموا إثبات الشكل ، وإن كان لهم مع ذلك عذر فيما فعلوه ، إذ كانوا يكتبون لأناس مثقفين . ومعروفٌ أن الرجل المتعلم لا يلقى صعوبة البتة فى قراءة أى نص يخلو من الشكل خلوًا تامًا . أما اليوم فالأمر جدّ مختلف لأن العربية أصبحت تخاطب حتى الأجانب ، ومن ثم كان من المهم استعمال إملاء "متكامل" من شأنه تسهيل القراءة والنطق . وهذا الأمر سوف يعجِّل ، إلى حد بعيد ، بانتشار لغة الضاد فى أرجاء المعمورة .

ولأمرٍ ما سمَّى العرب هذه العلامات «شكْلاً» ، فما السرّ يا ترى ؟ إن تلك الكلمة تشير فى الأصل إلى الحبل الذى كانوا يقيدون به الحيوان غير المستأنس تمام الاستئناس لكيلا يفرّ ، ثم استُعْمِلَت مجازًا فى القيد الذى يربط كل كلمة إلى معناها الصحيح . ولسوف يفيد المستشرقون من الاستخدام المنتظم للشكل لأن ذلك من شأنه تيسير المهمة النبيلة التى انتدبوا أنفسهم لها .

(٩)

وقد تناول ابن درستويه عبارة "سلام عليك" ذاكراً أن ثمة فرقًا دقيقًا بين هذه الصيغة وبين مقلوبتها "عليك سلام" : فالأولى لتحية الأحياء ، أما الأخرى فتحية الأموات ، وإن كان الشعراء ، حسبما قال ، أحيانًا ما يخلطون بين الصيغتين نزولاً على ضرورات الوزن والقافية .. كما ذكر أيضًا أن النبى عليه السلام هو الذى أمر أتباعه بمراعاة هذه التفرقة .

وكما رأينا فقد تحدث ابن المدبر عن الأدعية التي تبدأ بها الرسائل ، وهى مسألة جدّ دقيقة ، ففى الأصل كانت هذه الصِيَغ الدعائية متقاربة أشد التقارب ، ثم أخذ الناس رغم ذلك يميّزون ، بوجه عام ، بين "أطال الله بقاءك" و "أبقاك الله طويلاً". ويخبرنا الصولى أنه ينبغى نبذ الصيغة الأولى لأنها من دعاء الزنادقة ، كما يقدم لنا حول هذا الموضوع بعض المعلومات الثمينة للغاية موردًا البراهين على ما يقول حتى من كلام الخلفاء الأوائل وأحاديث النبى عليه الصلاة والسلام أيضًا ، إلا أن البراهين التى يوردها تفتقر ، فى رأيى ، إلى القوة . فالواضح أن الناس فى ذلك العصر كانوا لا يستطيعون النظر إلى أى شىء إلا فى ضوء الدين ، ومن ثم فما من عبارة ينطق بها الرسول أو أحد الصحابة إلا وتُضْحِى من فورها مقدسة لا تُمَسّ ، مما يؤدى إلى تحجر اللغة وإفقادها القدرة على التطور .

إن من الطبيعى جدًا تمسك الناس بالصِيَغ الدعائية التى تستخدم فى الشعائر الدينية المحضة ، لكنْ ليس من السهل علىَّ الاقتناع بأنه ينبغى على سبيل الحتم التمسك بالأقوال التى تصدر عن النبى عليه

السلام فى أحاديثه العادية . ذلك أنه يستحيل فى نظرى أن يفكر صلى الله عليه وسلم فى إضفاء الطابع المقدس الخاص بالتعاليم الدينية على كل ما يتفوه به فى حياته اليومية . كذلك لا بد من التنبه إلى أن اللغات المتطورة جميعها تعرف مثل هذه الفروق الدقيقة عند استعمالها لهذه العبارة أو تلك ، إلا أن هذه التقاليد إنما تعتمد منطقيًا على عبقرية اللغة نفسها لا على التقاليد الدينية التى يقوم بتفسيرها أصحاب العقول الضيقة .

والواقع أن البلاغيين الذين قعّدوا هذه الدقائق لم يكونوا يستطيعون ، إذا ما جَدّ الجدّ ، أن يقفوا ضد الاستعمال السائد . ومن ثم نرى ابن المدبر مثلاً ينقد قولهم : "جُعِلْتُ فداك" ويجعله موضع تهكمه ، إلا أن هذا لم يمنعه من ترديده فى مواضع متعددة من شعره[1] . وبالمثل نجد الصولى يهجّن قولهم : "أطال الله بقاءك" مع إقراره فى الوقت ذاته أن الناس كلهم يجرون عليه[2] . ولكن لماذا لم يُسْتَعْمَل هذا التعبير برضًا وقبول رغم كل شىء ؟ ألأن الزنادقة هم الذين أحدثوه ؟ لكن ينبغى القول إن هؤلاء الذين يسميهم أسلافنا بـ "الزنادقة" كانوا من أصحاب الثقافة الرفيعة . أفلم يكن من حقهم إذن ، بل من واجبهم أن يعملوا على إغناء لغتهم ؟ الحق أنه لا بد من إعطاء اللغة الفرصة لتتطور وترتقى ، مع الاكتفاء عندئذ بمعرفة الكاتب الذى أدخل فيها هذا التعبير المحظوظ أو ذاك .

---

(١) الأغانى / ١١٨/١٩ - ١٢١ .

(٢) أدب الكتّاب / ١٧٢ .

ويبدو لى أن ما كتبه ابن المدبر والصولى فى هذا الموضوع إنما يمثل المراحل الأولى للنقد اللغوى . ولا أظننا بحاجة إلى أن نقول إن تلك الشُّبَه المدرسية قد بَعُد الزمان بها وإن الكتَّاب العرب اليوم يتمتعون فى ممارسة لغتهم بحرية تامة وكاملة .

(١٠)

وقد عالج الصولى موضوع "الخاتم" قائلاً إن عرب الجاهلية لم يكونوا يعرفونه ، إلى أن جاء النبى عليه السلام فكان أول من ختم كتبه من العرب حين علم أن الملوك لا تقبل الكتاب إلا أن يكون مختوماً[١] . وفى القرون الأولى من تاريخ الإسلام كان الرؤساء وحدهم هم الذين يحتّمون خَتْم رقاعهم ، أما كتّابهم فلم يكونوا يفعلون هذا . وعندما كانت الظروف تسُوق أحدهم إلى استخدام الخاتم كان عليه ، من باب التواضع ، أن يثبت اسمه على الجانب الأيسر من الكتاب . كذلك لم يكن عند العرب فى البداية ديوان للخاتم ، إلى أن تولى معاوية الخلافة فأنشأ هذا الديوان [٢] . وكان الملوك قبله يضعون خواتمهم فى خزائن ويفوّضون عند الحاجة وزراءهم فى استعماله .

(١) المرجع السابق / ١٣٩ .

(٢) السابق / ١٤١ .

وتحدث ابن درستويه عن قولهم : «أما بعد» ، إلا أنه اكتفى بتناوله من الناحية النحوية (١) . كذلك ناقش الصولى هذه العبارة قائلاً : إن كعب بن لُؤَىّ هو أول من قالها (٢) . وأيا ما يكن الأمر فإن هذه الصيغة قديمة جدًا ، وظلت تُستَعمَل حتى يومنا هذا ، وإن بدأ الكُتَّاب يهجرونها .

وكما رأينا فإن ابن المدبِّر قد وضع عدة مبادئ تضبط مسألة التاريخ الذى تؤرَّخ به الرسائل . وكان ابن درستويه أوضح فى هذا السبيل (٣) ، وبالمثل فقد فصّل الصولى القول فى ذلك تفصيلاً (٤) . وبناءً على ما قدّمه الثلاثة من معلومات فإن العرب لم يكونوا يؤرّخون أولاً بالأرقام بل من خلال إشارات تاريخية شديدة التعقيد .

ويذكر الصولى أيضًا أن «الألقاب» لم تُضَف إلى أسماء الخلفاء إلا بأُخَرة . ومن المعروف أنها لون من النعوت والصفات كان الخلفاء يلحقونها بأسمائهم . وكان الخطباء يدعون للخليفة الحاكم ، لكن دون أن ينعتوه بشىء . وكان محمد الأمين هو أول من دُعِىَ له بذلك ، وجرى الناس على هذا . وكان الكتّاب العرب يؤكدون بحقٍّ أهمية مهنة الكاتب ، فهو يقبض بيديه على كل شىء ، إذ هو الذى يقدّر قيمة الخَرَاج والأموال على من تجب عليهم ، لكن البلاغيين لم يهتموا بهذه المسألة ، بل كان

---

(١) كتاب الكتاب / ٧٦ – ٧٧ .

(٢) أدب الكتّاب / ٣٦ .

(٣) كتاب الكتّاب / ٧٧ – ٨١ .

(٤) أدب الكتاب / ١٧٨ – ١٨٥ .

شغلهم صياغة القواعد الخاصة بصنعة الكتابة . ومع ذلك فقد وضع الصولى فصلاً رائعًا عن مزايا هذه المهنة وأثنى على القرشيين قائلاً : إن التوراة قد ذكرت أنهم هم الكَتَبة الحَسَبة [١] . كما ذكر فى فصلٍ آخر المعلومات الحسابية التى كانت معروفة آنذاك مُورِدًا بعض الحكايات التى تتعلق بذلك الموضوع [٢] .

ويبدو أن العرب القدماء كانوا يكتبون رسائلهم من نسخة واحدة ، ثم كان زياد هو أول من أمر بكتابة عدة نسخ من الرسالة الواحدة حسبما ذكر الصولى [٣] .

كذلك لم يكن العرب يعرفون مهنة خبير الخطوط . ويُعَدّ سليمان بن وهب أول من قام بشىء فى هذا المضمار ، فقد اشتبه ذات يوم فى تزوير إحدى الرقاع ، فما كان منه إلا أن أحضر المشتبه فيه وأملى عليه نصّ الرقعة المذكورة ، والرجل يجحد أنه صاحبها . وغنى عن القول أنه ، عندما كان يكتب ما يُمْلَى عليه ، لم يأل جهدًا فى تغيير طريقته فى كتابة الحروف ، إلا أن سليمان استطاع رغم ذلك أن يكتشف أنه هو صاحب الرقعة . وحين سئل عن سر ثقته تلك أجاب بأن المزوِّر ، مهما اجتهد فى إخفاء طريقته الكتابية ، لايمكنه أن يغير سجيته المعتادة فى رسم

(١) المرجع السابق / ٢٨ .

(٢) السابق / ٢٣٨ .

(٣) السابق / ٤٤ .

بعض الحروف التى لم يحترس منها طبعه ، وذلك كافٍ فى فضح أمره [1] .

هذا ، ولا أحسبنى بحاجة إلى النص على أن القواعد الخاصة بالكتابة الجيدة التى فرغنا الآن من تحليلها إنما تتعلق بالرسائل الديوانية ، أو بعبارة أخرى : بالخطابات الرسمية . أما بالنسبة للرسائل الإخوانية فليست لها أية قواعد ، بل يستطيع كل إنسان أن يكتب لأخيه كما يحلو له [2] .

وهنا نتوقف عن هذه المقارنة التى طالت بين ما كتبه كل من ابن درستويه والصولى وما كتبه ابن المدبر فى «الرسالة العذراء» . وإذا أردنا أن نلخص نتائج هذه المقارنة فإننا نقول إن ابن درستويه ينحو فى تناول الموضوع مَنْحًى نحويًا لغويًا ، على حين يهتم الصولى بإيراد المعارف العامة اللازمة للكاتب ، أما «الرسالة العذراء» فتركز على الدقائق الخاصة بالرسوم الفنية والاجتماعية المتعلقة بالرسائل الديوانية .

ويزوّدنا أحمد بن عبد ربه فى كتابه «العقد الفريد» بمادة غاية فى الأهمية عن صنعة الكتابة والأساليب المختلفة التى يجرى عليها الكتّاب . وتمثّل المادة التى يقدمها لنا تمثيلاً دقيقًا المعلومات العامة التى كانت

---

(١) نفس المرجع والصفحة .

(٢) السابق / ٢٣٦ .

معروفة فى عصره فى ذلك المجال ، فبعد حديثه عن أول من وضع الكتابة والخط حسب قوله نراه يذكر الطرائق المختلفة لاستفتاح الكتب وختمها وتاريخها وعنونتها ، كما يسلّط الضوء على قيمة الكتابة وأهميتها الاجتماعية موردًا أسماء عددٍ من أفضل من شغلوا وظيفة الكاتب لدى الخلفاء الراشدين الأربعة وغيرهم من الشخصيات الكبيرة ، ليختتم حديثه بعد ذلك بذكر من كانت تلك المهنة سببًا فى نبالتهم من بعد خمول .

ويجد القارئ أيضًا فى «العقد الفريد» لمحات طريفة عن الصفات اللازمة للكاتب . وبالمناسبة أود أن أذكر هنا بسرعة أن كلمة «كاتب» ، حسبما كانت تستخدم آنذاك ، يمكن ترجمتها ترجمة أكثر دقة بالكلمة الفرنسية "Scribe" ، وفى بعض الحالات بـ "Commis aux écri- tures" . ومما تناوله ابن عبد ربه فى كتابة أيضًا موضوع البلاغة ، فضلاً عن بعض التفاصيل المادية والأقلام والأحبار التى ينبغى استخدامها . كما تحدث عن «التوقيعات» ، تلك الردود المركّزة التى تدل على المعنى الكثير باللفظ القليل ، لينهى كلامه فى هذا الموضوع بإيراد كثير من الرسائل الديوانية للاستشهاد على ما يقول .

وتعد الصفحات الخمس والخمسون التى خصّصها ابن عبد ربه لصنعة الكتابة بالنسبة لنا اليوم وثائق نفيسة ، إلا أنه من غير المجدى البحث فيها عن أى شىء آخر غير التجميع الذكى للنصوص ، كالأصالة مثلاً .

وحين يذكر كاتبنا أن إسماعيل بن إبراهيم هو أول من وضع الكتابة فإنه لا يفعل شيئًا أكثر من ترديد ما يقوله الآخرون

وبالمثل نراه لا يجشم نفسه مؤنة التدليل على ما يقوله من أن العرب ، عند ظهور الإسلام، لم يكونوا يعرفون الكتابة ، اللهم إلا نحو خمسة عشر شخصًا ، ثم يأخذ فى ذكر أسمائهم واحدًا واحدًا ، وبما أنهم جميعًا قرشيون فإن دعواه لا تصلح لتعميمها على العرب جميعًا .

والحق أنه لا يمكن التشكيك فى أن غالبية العرب آنذاك كانوا أميين . لكن ينبغى أيضًا أن نكون على ذُكْرٍ من أن المؤرخين المسلمين كانوا يعملون دائمًا على التقليل من شأن الجاهلية كى يُضفوا على الإسلام سمة التحول الباهر وأن يظهروه بحقٍّ على أنه النور الذى بدد الظلمات المتراكبة. صحيح أن جزيرة العرب إنما تدين للإسلام بالفضل فيما أحرزته من مجد، لكن لا يصح أن ننسى أن العصر الجاهلى قد عبَّد الطريق لذلك الدين ، بل تجمعت فيه المواصفات اللازمة لظهور نهضة حقيقية .

ويبدو ، بناءً على ما ذكره ابن عبد ربه، أنه كانت هناك محاذير يجب على الكاتب مراعاتها، وإلا فقد سمعته الأخلاقية فى بعض الأحيان . ويتعجب صاحب «العقد» كيف أن الحسن البصرى ، على نبله وفقره وورعه وزهده [1] ، قد شغل منصبًا مشابهًا فى بعض مراحل حياته ، كما يُبْدى الدهشة نفسها بالنسبة للشعبى [2] . ومن المؤكد أن هذه الملاحظة فى محلها تمامًا ، لكن ما وجه العجب فيها؟ إن مهنة الكاتب

(١) العقد الفريد / ٣ / ٩ .

(٢) المرجع السابق / ٣ / ١٠ .

فى الواقع مهنة محفوفة بالغوايات المهلكة ، إذ الكتاب هم الذين يحسبون الأموال ، ومن ثم يتحكمون فى أمور الخلق ، وذلك أنه لم تكن لدى العرب قواعد عامة وثابتة لتقدير الأموال التى تُجبْىَ ، بل كان كل شىء مرهونًا بإرادة الكاتب. ومن هنا نجد المؤلفين القدماء ينصحون الناس باستمرار بأن يكونوا على وفاق مع تلك الشخصيات ذات النفوذ .

على أن هناك شيئًا آخر ، وهو أن الكتَّاب كانوا مهتمين إذ ذاك بالخلاعة والزندقة ، فدواوينهم هى منبت الضلالات الجامحة ، إذ منها خرجت أشعار المجون والرسائل الظريفة الساحرة التى تتغنى بالحب والجمال فى كل شكل من أشكالهما . وباختصار فكل هجوم على الإسلام وكل مساس بآدابه إنما انطلق من مكاتبهم .

كذلك يخبرنا ابن عبد ربه بالظروف التى تم فيها الانتقال من الرومية إلى العربية فى أعمال الحساب ذاكرًا أن الذى اقترح هذا على عبد الملك بن مروان هو سليمان بن سعد، وأن قحزمًا قد قام بإصلاح مشابه حين قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية .

وتتسم التفاصيل التى يقدمها لنا صاحب "العقد الفريد" عن الفئات المختلفة للكتَّاب بالطرافة الشديدة أيضًا : فهناك كاتب رسائل، وكاتب خَرَاج ، وكاتب جُنْد ، وكاتب شرطة ، وكاتب قاض وكل وظيفة من هذه الوظائف تستلزم ثقافة خاصة : فكُتَّاب الرسائل مثلاً عليهم أن يُلمّوا إلمامًا تامًا بدقائق اللغة كى يمكنهم الكتابة بالكفاءة نفسها إلى السلاطين والأفراد العاديين على السواء، أما كتاب الخراج فلا يصح أن يجهلوا

الحساب أو الزَّرْع أو كيفية تقدير شيات الدوابّ والحلىّ ، وأما كتَّاب الجند فكانوا يعرفون الحساب، على حين كان كتَّاب الشرطة على علم بفقه الجروح والقِصاص والعقول والديات، كما كان على كتَّاب القضاة أن يكونوا خبراء فى كل الأمور المتعلقة بالحقوق الشرعية ، وبخاصة مسائل المواريث (١) .

فهذا ما تهمنا معرفته بالنسبة للتنظيم الإدارى عند العرب فى ذلك العصر ، أما الزى الذى كان يميّز كل طائفة من الكتَّاب فلم يتعرض له ابن عبد ربه البتة . ومع ذلك فإننا نعرف من مصادر أخرى أنه لم تكن لهم أزياء موحَّدة ، لكن الجاحظ قد أخبرنا أن كتَّاب الجند كان لهم زى خاص ، ومن زيهم أن يركبوا الحمير ، وإن كانت الهماليج لهم مُعْرِضة (٢) .

(١٢)

ويبقى أن أشير هنا إلى أمرٍ مهم ، وهو أن ابن عبد ربه قد أفاد كثيراً من "الرسالة العذراء" ، ولكن دون أن ينصَّ عليها صراحة .

(١) السابق / ٣ / ١٣ - ١٤ وانظر أيضًا "صبح الأعشى" / ١ / ١٤٢ . ويفسر بعض المؤلفين كلمة الكاتب بمعنى "الموظف فى مكتب" ، وبعض آخر مثل مؤلف "سلوك المسالك فى تدبير الممالك" يستخدمونها بالمعنى الذى كانت تفسر به فى فرنسا فى القرن السابع عشر، وهو الـ "Commis" - مثل كولبير، الذى كان "Commis" فى المالية ، ولوڤوا فى الحربية .

(٢) البيان والتبين / ٣ / ٦٠. (ومعنى الكلام أنهم يركبون الحمير رغم توفر البغال - المترجم) .

وحسب كلامه فليس صاحب الفقرات المنتخبة هو إبراهيم بن محمد المدبر ، بل إبراهيم بن محمد الشيباني [١] . ويمتاز ما انتخبه ابن عبد ربه بأن فيه شيئًا من التفصيل أكثر ، فمَنْ هو إبراهيم الشيباني هذا يا ترى ؟ لقد حاولتُ في العام الماضي أن أعثر على ترجمة له ، غير أني لم أصل إلى شيء . ومع هذا فلا بد أنه كان يعيش في الجزء الأخير من القرن الثالث الهجري لأنه كثيرًا ما يرد ذكره عند الجاحظ حسبما بينا في الملاحظة المرفقة بالنص العربي.

وكما لاحظنا في بداية هذه الدراسة فإن الأدلة القطعية التي تثبت نسبة "الرسالة العذراء" إلى ابن المدبر غير متوفرة ، وإن بضع كلمات في كتاب الصولي هي وحدها التي عرّفتنا أنه كان معنيًا بصنعة الكتابة . وبهذا نخرج بالنتيجة التالية ، وهي أن هناك اسمين يمكن أن يتنازعا على السواء نسبة هذه الرسالة هما ابن المدبر والشيباني ، وكلاهما يُدْعى إبراهيم بن محمد، وهذا أمر يدعو إلى الحيرة دون أدنى شك ، أما الرسالة نفسها فإن العجز عن نسبتها إلى أي منهما لا يقلل من أهميتها في شيء . كل ما هنالك أننا نأسى لمشابهتها لتلك القصيدة العربية التي ادّعى نسبتها سبعون شاعرًا لا أكثر .

---

(١) انظر ١١ - ١٢ ، ١٩ .

(١٣)

ونحب فى النهاية أن نلقى نظرة على ما قاله الجاحظ فى هذا الموضوع . وأول ما نذكره هو أن أسلوب ابن المدبر يشبه أسلوب الجاحظ إلى حد كبير ، بل إن فى "الرسالة العذراء" فقرات مستعارة من كتابه "البيان والتبيين"، وبخاصة تلك الفقرات التى يعرّف فيها "البلاغة" . وهذه الاستعارة تشرح نفسها بنفسها ، فقد كان كتاب الجاحظ متاحًا لكل إنسان . ثم إن ابن المدبر ، الذى كان صديقًا حميمًا له ، لا بد أن يكون قد شعر بميل إلى اقتفاء طريقته أو بالأحرى تقليده .

وواقع الأمر أن كتاب الجاحظ يتسم بالطول وعمق الفكرة ، ويستحق أن تُفْرد له دراسة خاصة ، ومع ذلك فلسوف نقتصر هنا على مناقشة رأيه فى مسألة لم يتعرض لها ابن درستويه أو الصولى أو ابن المدبر ، ألا وهى "السجع" . وسرّ إلحاحى على هذه المسألة هو أننى لا أستطيع مشاطرة المسيو مرسيه والدكتور طه حسين ، أستاذى الأدب العربى الكبيرين ، ما يؤكدانه من أن السَّجع لم يتطور حقًا إلا بدءًا من القرن الرابع الهجرى . فأنا ، على العكس من هذا ، أرى أن السجع عند العرب قديم للغاية ، إذ إن القرآن ، الذى يمكننا من الناحية الأدبية أن نرى فيه أقدم وأصحَّ أثرٍ عربىّ فى عصر المبعث المتاخم للعصر الجاهلى، يمتلئ بالجمل المسجوعة . كذلك فإن خطب الكهان والرهبان فى الجاهلية هى ، بلا مشاحّة ، خطبٌ مسجوعة . وإنى لأؤكد أن عادة التزام السجع قد استمرت بعد القرآن ، إذ إن هذا هو الأمر الطبيعى ، فضلاً عن أن بمستطاعنا اقتفاء آثار ذلك السجع . ومن رأى المسيو مرسيه أنه لم

يعد يستعمل على عهد بنى أمية . بل لقد قال لى ، ذات يوم من أيام سبتمبر ١٩٢٩م ، إن ابن المقفع كان يجهل شيئًا اسمه "سجع" . لكنى بالعكس من ذلك أعتقد أنه كان يعرفه جيداً ، إذ قال هو نفسه إن البلاغة قد تكون سجعًا [١] ، بل كان يسجع أيضًا فى بعض الأحيان [٢] . وبالمثل كان بشار بن بُرْد معروفًا بكونه سجّاعًا .

وينبئنا ابن الأثير أن للقرآن طريقتين فى تحقيق الاعتدال بين مقاطع الكلام هما السجع والموازنة. ومن المعروف أن للموازنة من التأثير على تركيب الكلام مثل ما للسجع نفسه[٣] . ويذكر أبو هلال العسكرى أن النبى نفسه كان يسجع ، غير أنه كان يتجنب السجع إذا رأى أنه يؤدى إلى الالتباس [٤] . ويقول فى موضع آخر إن السجع إذا سلم من الاستكراه ازداد حسنًا [٥] . وفى كتابه الرائع "سرّ الفصاحة" ، الذى توجد نسخته الخطية فى دار الكتب المصرية ، يدرس ابن خفاجة هذه القضية أعمق ما تكون الدراسة . وفى رأيه أن معظم الكتّاب كانوا يستعملون السجع ، كل ما هنالك أن بعضهم لا يكاد يخلّ به ، وبعضهم الآخر يستعمله مرة ويرفضه أخرى ، وذلك حسب الظروف [٦] . وهو يرى أيضًا أن الفواصل المحمودة هى التى تكون تابعة للمعانى ، وعلى الضد من ذلك الفواصل المذمومة ، وهى التى تكون متكلّفة يتبعها المعنى ولا يبغى الكاتب من ورائها سوى الرنين الموسيقى .

(١) انظر "البيان والتبيين" / ١ / ٩١
(٢) أدب الكتاب / ٦٨
(٣) المثل السائر / ١٧٠
(٤) الصناعتين / ٢٠١
(٥) المرجع السابق / ١٠٩
(٦) المرجع السابق ص / ١٨١ - ١٩٠

ويورد الجاحظ بين الحين والحين شواهد من النثر المسجوع ، ويبدو أنه يرى فى هذه الطريقة الكتابية لونًا من الفن الرفيع ، بل إنه قد دافع عن السجع فى الكتابات النثرية من وجهة نظر بلاغية . وكان القُصَّاص فى القرنين الثاني والثالث يسجعون فى قصصهم[1] . ومعروف أولئك الأدباء المشهورون الذين كانوا يأتون المساجد لإلقاء محاضرات عامة يتناولون فيها جميع الموضوعات، إذ كانت ثقافتهم من السعة بحيث يمكنهم الكلام فى التاريخ والأدب والفقه، وكذلك التفسير والحديث . إننى لا أجزم بأنهم كانوا يلتزمون السجع دائمًا أيًا كان الموضوع الذى يتحدثون فيه، بل أحسب أنهم كانوا يقتفون خُطا القرآن فيسجعون فى الموضوعات الوجدانية ويعملون على تحريك القلوب.

ولست أجهل أنه كان هناك من ينفرون من السجع من أجل أن الكهان كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ، إلا أن هذا النفور نفسه هو الذى حدا بالجاحظ إلى الدفاع الحار عن ذلك الأسلوب الكتابى مشيراً إلى أن القرآن يستخدم السجع فى كثير من الأحيان ، وكذلك النبى عليه السلام .

ولا أحب أن يفوتنى التنبيه إلى أن الجاحظ كان يسجع أيضًا [2] ، لكن دون أن يلتزم السجع على الدوام . ولا بد من تكرير القول بأننا

---

(١) البيان والتبيين / ط ١٩٢٩م / ٢ / ١٩٢ - ١٩٦ .

(٢) الرسائل / ٥ .

نستطيع أن نجد السجع عند كثير من كتّاب القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، بل لقد كانت هذه الطريقة منتشرة فى كلام الأعراب . أما اليوم فنادراً ما يقابلنا السجع فى كتابات المعاصرين ، وهورَدٌّ فعل طبيعى ضدالغلوّ فى استخدامه من بعد القرن الرابع، بل إن الكتَّاب الآن لينظرون إليه على أنه شىء شديد الابتذال . ومع ذلك فقد نجده عند بعض المؤلفين الذين يتناولون موضوعات عاطفية أو يريدون أن يعطوا لغتهم مذاقًا فنيًا ، فعلى سبيل المثال نرى أحمد شوقى وحافظ إبراهيم يسجعان غالباً حتى فى نثرهما ، ذلك أنهما شاعران يميلان إلى تزيين كلامهما بما يتميز به السجع من رنين موسيقى .

المؤلف فى سطور

زكى مبارك

- ولد فى قرية سنتريس (منوفية) عام ١٨٩١ م ، وتوفى فى القاهرة عام ١٩٥٢ م .
- التحق بالأزهر الشريف عام ١٩٠٨ م ، ثم بآداب القاهرة ، حيث حصل على الليسانس فى اللغة العربية وآدابها عام ١٩٢١ م .
- حصل على ثلاث دكتوريات : الأولى من الجامعة المصرية عن « الأخلاق عند الغزالى» عام ١٩٢٤ م ، والثانية من جامعة السربون فى موضوع «النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى» عام ١٩٣١ ، والثالثة من الجامعة المصرية مرة أخرى عن «التصوف الإسلامى» عام ١٩٣٧ م . ومن هنا جاء تلقيبه بـ «الدكاترة» زكى مبارك .
- له بضع عشرات من الكتب فى الدراسات الأدبية والنقدية ، ومئات المقالات فى الصحف والمجلات المختلفة ، وعدد من الدواوين الشعرية .
- عمل بعض الوقت بالتدريس فى الجامعة المصرية ، وكذلك فى معهد المعلمين العالى ببغداد عام ١٩٢٧ - ١٩٣٨ م ، وبالجامعة الأمريكية فى القاهرة ، كما اشتغل بالتفتيش فى وزارة المعارف المصرية .
- وهو من كبار الكتاب وأصحاب الأساليب المتميزة فى تاريخ الأدب العربى .

المترجم فى سطور

إبراهيم عوض

- ولد فى قرية كُتّامة الغابة (غربية) عام ١٩٤٨ م .
- أتم حفظ القرآن الكريم فى الثامنة من عمره ، ثم دخل الأزهر الشريف عام ١٩٥٩ م ، حيث حصل على الإعدادية من المعهد الأحمدى بطنطا .
- انتقل بعد ذلك إلى مدرسة الأحمدية الثانوية بالمدينة نفسها ، ومنها إلى جامعة القاهرة التى التحق منها بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية لمدة ثلاثة أيام لاغير ، وتركها إلى كلية الآداب - قسم اللغة العربية آدابها ، إذا لم تصادف دراسة السياسة والاقتصاد هوًى فى نفسه ، وقد تخرج من الجامعة عام ١٩٧٠ م .
- أحرز درجة الدكتورية فى النقد الأدبى من جامعة أوكسفورد عام ١٩٨٢ م .
- له عشرات المؤلفات فى مجال الدراسات الأدبية والنقدية والإسلامية ، ومثلها من الدراسات الضوئية على المشباك «الإنترنت» ، وبعض الترجمات من الإنجليزية والفرنسية .
- يعمل حاليًا أستاذًا فى كلية الآداب - جامعة عين شمس بالقاهرة .

التصحيح اللغوى : صفاء فتحى
الإشراف الفنى : حسن كامل